دون أن يدري

في غرفة مظلمة أقف وحيدًا أبحث عن اتجاه صائب للخروج، أتذكّر علب الطلاء الفسفوريّ، التي وضعتها يومًا بجوار الحائط، أغمس فرشاة كنت قد اشتريتها من عهد سابق، لا يختلف كثيرًا عن العهد الحالي، أمزّق ظلمة الحائط.. أزرع فيها الألوان؛ لتضيء لي قبسًا، أسترشد به، تغتاظ الظلمة، تأمر الحائط بتقيؤ الألوان؛ لتسيل عليّ الأرض مكونة بقعًا سريالية، أضحك ويزيد عنادي ساكبًا علب طلائي في وجه الحائط، يسقط الحائط كلّ الألوان إلّا اللون الأحمر، يخنقني اللون الأحمر بوهج حرارته الجحيمية، أخمشه في وجهه، فتنكسر أظافري وتسيل دموعي، تتساقط تختلط مع اللوحة مكونة كلمة تشبه حرية يهتزّ الرسم، ولا يهتز منطق الكلمة في روحي فأحدق في الحائط، وأدقّ عليه دون كلل يقاومني، فأصرخ ويزيد طرقي، والأمل يتضاءل في نفسي يتشقق الحائط. لكن يظلّ صامدًا بظلمته الكالحة، يزيد طرقي وتنطفئ عزيمتي رويدًا رويدًا حتّى أسقط خائر الأمل ممزّق الأحلام أغيب عن الوعي، فقد سقط على رأسي حجر.